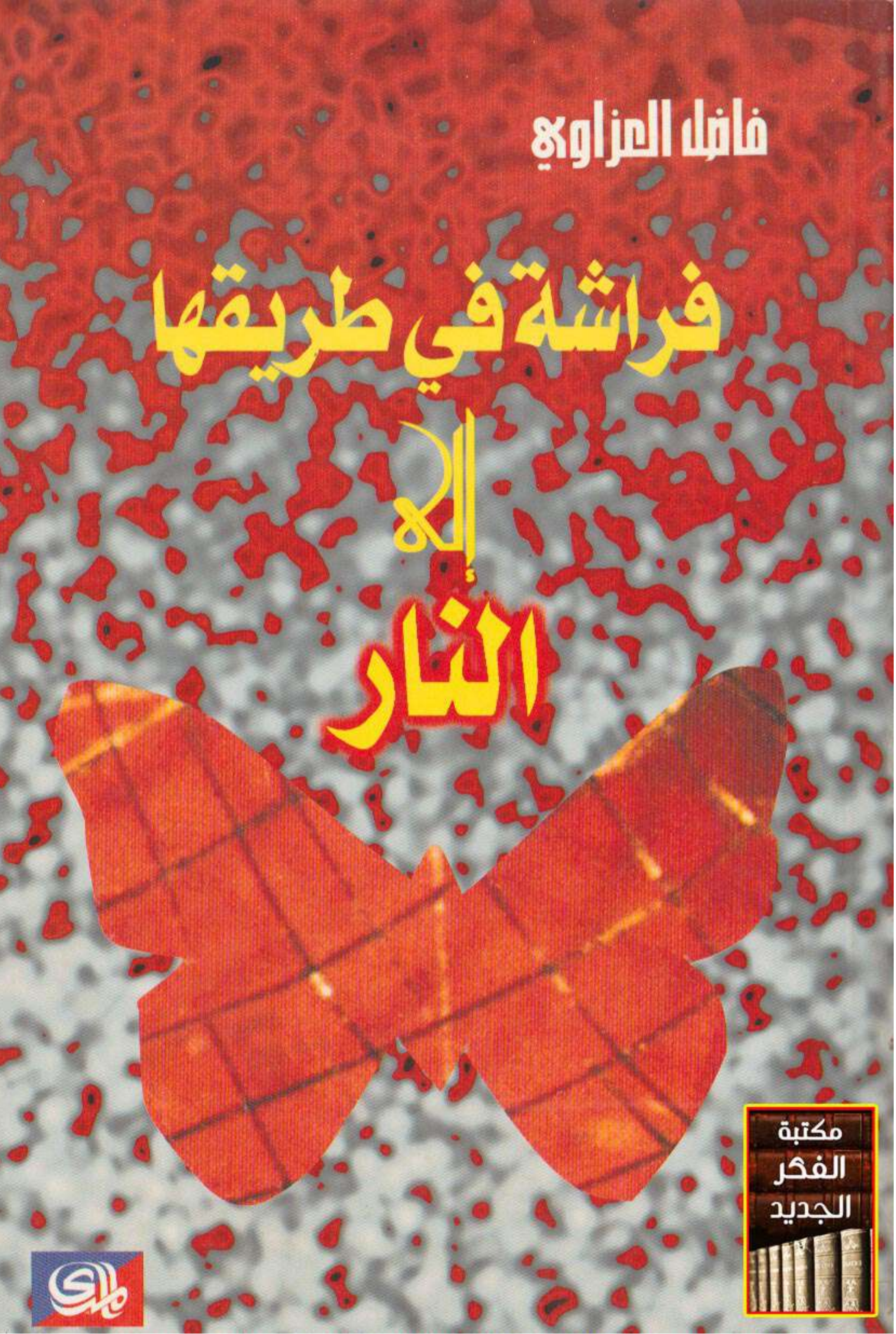


فاضل العزاوي
فراشة في طريقها
إلى
النار
مكتبة
الفكر
الجديد



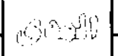
فراشة في طريقها إلى النار




مكتبة
الفكر
الجديد

فاضل العزاوي





منشورات





اسم المؤلف : فاضل العزاوي
عنوان الكتاب : فراشة في طريقها إلى النار
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
الطبعة الأولى : ١٩٩٨

Author : Fadil Al-Azawi
Title : Butterfly in the Way to the Fire
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١ فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

Al Mada : Publishing Company F.K.A
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon, Fax : 9611- 426252

الحفلة الصاخبة




مكتبة
الفكر
الجديد

في الطريق الى مكة

« إني لأخشى كثيرا أيها الأعرابي
أنك لن تبلغ الكعبة
لأن هذا الطريق الذي تسلكه
يؤدي الى تركستان »

مصلح الدين سعدي ـ «بستان الزهور»

من كل مكانٍ جاؤوا
طرقوا البابَ طويلاً ، تركوا في دهليزِ الأيامِ حقائبَهم ،
جلسوا في الشارعِ وانتظروا .

طرقاتٌ تلتفُ على كُثْبانٍ خاويةٍ
كأفاعٍ من إسْفَلْتٍ في العَتَمَة
أسوارٌ يهدِمُها الأعرابُ ويغتصبونَ متاهاتٍ مهجورة



حكماءُ بلحى ينحدرونَ صفوفاً من جبلٍ في أسطورة

نهبوا كل كنوزي :

زمنٌ للنوم وآخرُ لليَقَظَة

زمنٌ للحلمِ وآخرُ للنسيان .

آهِ ، يامن أسمعُ في كلّ حَصارٍ صرختَهُ الدَمَويَّةَ ،

فلتَصرُخْ في وجهِ الفاتحِ مُنْتَصِراً!

ولكلٍّ صرختُه أيّانَ يموءُ الحَمَلُ أَسيراً وجريحاً

في فكّي الذئبِ الغاشم

إذ مكتوبٌ فوق جبينِ العابرِ أن يقطعَ هذا الدربَ ،

وكلُّ كتابٍ يُقرأ ثانيةً وتراهُ العين .

آهِ يا ضيفَ حياتي قُلْ لي :

كيفَ رميتَ بنفسِكَ في مُعْتَرَكِ الأَهوالِ وحيداً

لتمرَّ أخيراً من خَرْمِ الإبرة ؟

ولماذا سلكتَ مجاهلَ تمتدُ الى أقصى روحِكَ ؟

كيفَ وهبتَ مغولَكَ خاتمَك السِّحْري

فنسيتَ ضيوفَك ، آتينَ سعيدينَ اليكَ بمركبةٍ طالعةٍ

من آخرِ شمسٍ في دربِ التبّانة ؟

في مُنحدراتِ ضفافٍ من ياقوتِ الماضي
تصطَفُّ جماهيرُ تنفخُ في أبواقٍ
راقصةً في أعراسٍ تُعقَدُ في فردوسٍ مفقود
فيما جاريةٌ في غابة
تحملُ لي فانوساً في الظلمة
لأرى نوحاً بين الأَشجارِ يُقيمُ جسوراً
من أَغصانٍ ذاويةٍ
أَعرفُ أَني سوف أسيرُ عليها يوماً في الطوفان .

أذكرُ أَني ، فيما أَذكرُ ، مغتبطاً كنتُ هناكَ
مع الشيطانِ أقودُ سفينتَه وسط الأمواجِ الى ساحلِ أَعوامي
مأخوذاً بنداءِ الحوريّاتِ ، يُغنَينَ على الصخرةِ لي
إذ أقطعُ اوقيانوساتٍ من أحلامٍ
وأعلِّمُ مسرى رغباتي بالنار .

آهِ ، ما من أحدٍ في هذا الوادي الأجردِ ،
يحملُ عني أثقالي !
مدنٌ من إِسْمَنْتٍ وقطاراتٌ تعوي أبداً ،

أصنامُ من ملحٍ
تبصقُ في بئرِ حياتي .

آهِ ، يا ضيفَ طريقي السائرَ مثلي في المنفى
لا تُخفِ خرائطَكَ المسروقةَ من صندوقِ جدودي!
لا تكتمْ سرَّك عني!
قلْ لي ماذا نفعلُ حتى نبلغَ ثانية مكة!

*

كلُّ نداءٍ تُطلِقُه يحفرُ أخدوداً في جسدِ العالم
كل هتافٍ تصرخه أسمعهُ في كهفي ، مخفياً وشقيا
بين برابرةٍ أجلافٍ يصطادونَ ملائكةً هائمةً في الجنة
في زاويةٍ من منفى تكمنُ ، تنصبُ للتاريخِ فخاخاً
منتظراً آلهةً تخرجُ من غواصةِ أشباحٍ غارقةٍ
لتباركَ هذا الصاعدَ كالنسرِ الى أعلى جبلٍ في قفقاسِ الأبدية
لكن شراكَكَ باليةٌ ، وضحاياك الآنَ يلمّون الريحَ من الطرقاتِ بأيديهم
ليفضَّ السيّدُ ميثاقَ خساراتِه في قُدّاسِ المنسيّين .

*

آثارُ فوق حصى وخيولُ مرت هابطةً

في صَفحةِ مرآةٍ تَبرُقُ في مُنْحَدَرٍ دون قرار

آثارُ ملوكٍ موتى خسروا فضَّتَهم في لعبةِ نرد

عرباتٌ تأتي وتروح

عرباتٌ تأتي من كل مكان

تتبعُها قطعانُ ذنابٍ حتى الأبراج

فنطاردُها بعصيٍّ من ذهبٍ زائف

ونعودُ لنوقدَ ليلاً نيرانَ الأسلافِ على الأَسوار .

الدربُ هنا مهجورٌ كغروبٍ في مدنٍ محتلة

كيدٍ واثقةٍ تطعنُ بالسكينِ خيولَكِ أيتها الأزمنةُ المحكومةُ بالقتل

حيث يُشيرُ الأَعمى الواقفُ فوق الضِفَةِ الأُخرى

في الليلِ بشمعتِه ، محجوباً عنا بغيومكِ مُعْتِمَةً

لِيُنيرَ طريقَ قوافلِنا سائرةً في بيداءِ العالمْ .

*

مدنٌ تبرقُ في ذاكرتي ، أدخلها الآن لأرفعَ فوق منائرِها أعلامي

فأرى موكبَ رهبانٍ في عيدٍ يتلون تراتيلَ مقدسةً لي

حيث غرابٌ يرمي حجراً من سجّيل

حيث ملاكٌ يُمسِكُني من كفي ويقودُ خطاي الى بئرٍ طافحةٍ

أغسلُ فيها آثامي وذنوبي .

مدنٌ تبزغُ في أحلامٍ ، وغزاةٌ وثنيونَ يجرّون عبيداً أسرى

برؤوسِ كلابٍ تنبحُ فوق رصيفٍ مرجاني

يتلوى في العَتَمَة .

مُدُنٌ أُطفِئُها في ذاكرتي واحدةً بعد الأُخرى ،

خفراءُ من نومٍ أطردُهم من بستاني

ولصوصٌ آشوريونَ أجرُّ بغالهم التعبى صُعُدا حتى القِمّة

لأحررَ أول عبدٍ مغلولٍ في قفصٍ يتشبثُ بي

أُطلِقُه موعوداً لزمانٍ آتٍ ، لزماني

وأواسي آخرَ مصلوبٍ في مملكتي

أحملُه في نزهاتي الليليةِ بين القارات

مطليّا بدموعِ العالم

كالطفلِ على كتفي

حتى يستيقظَ من موتِه .



في آكامِ الأَمواتِ حملتُ على كتفي كلكامشَ سكراناً
ونهبتُ من الأفعى عشبتَّها المسمومة
فافترستني اللعنة .
نمرٌ كشّرَ عن أنيابِهِ في وجهي
نمرٌ مختبئٌ يربضُ منذ عصورٍ بين الأغصان .

خالطتُ شعوباً صاخبةً في حانة
نادلُها مرَّ عليَّ وفي يدهِ فأسُ
شقَّ بها أنفاقاً ومسالكَ في جسدي
للغيمةِ مُرعدةً فوق سفوحي .

هذا الصوتُ الصارخُ في البرّية
أصْرَخُه ثانيةً
كصدى مبذولٍ لحياةٍ أخرى .
ثمة ناقوسٌ في معبدِ أشجارٍ باكيةٍ أسمعُه آنَ وصولي
يقرعُ لي .

أفتحُ للساحرِ سراً ظِلْفةَ بابي



فأرى ظلي يغسلُ أطرافَه في جدولِ ماءٍ

ظل حياتي البارد .

آهٍ يا ضيفَ طريقي الضاربَ في ليلِ الصحراء

ما أبعدَ مكةَ عنا!

آهٍ ياصاحبَ ركبي

كيف بلغتُ روابيَ تركستانَ وكان مُرادي الكعبة!

*

من كلِّ مكان جاؤوا

فوق جمالٍ منهكةٍ

وقفوا في الباب قليلاً ،

تركوا للريحِ هداياهم في أكياسٍ مغلقةٍ

وانصرفوا .



على ظهر سفينة اسمها الحياة

في السفينةِ التي ستقودُها الصدفةُ الى حيث لا ينتظرها أَحد ،

كبحارٍ يملكُ خرائطَ سريةً لأنأى الطرقِ في مجاهلَ يعرفها كراحةِ كفه

صعدنا الى السطحِ لنسددَ للزمانِ ديونَه المتأخرة

عن كل ما سجله البقالُ علينا في دفاترِه العتيقة

فاذا بنا وسط حفلةٍ صاخبة :

راقصون وراقصات في الحَلَبَة

روبوتات بمرايلَ من حريرٍ وقلوبٍ خافقة

تجيءُ وتروحُ ، خادمةُ الضيوف

كافيارٌ متبّل بالكوكائين ومقانقُ من موائدِ الملائكة

أكلتُ منها حتى التخمة

مع ضيوفٍ غرباءٍ لا أَعرفُ أَحداً منهم ،



جلسوا على مقاعدَ سفريةٍ عند الغروب

ورموا بصناراتهم في الماء .

منتظراً حظي السعيدَ ، وكلُّ ينتظرُ حظَّه ،

اصطدتُ أميرةً غريقة ،

انتفضت ، كسمكةٍ في يدِ الصياد ،

قبل أن تستسلمَ لي ، باكيةً من الحنينِ الى البحر .

فحملتُها معي الى غرفةٍ يحرسها

تمثالٌ يمد يده اليمنى الى كل من يمرُّ به ليفحصه .

صافحناه كأصدقاءَ في محنة

قبل أن ننسلَّ الى ممرٍ طويلٍ يصخبُ بالموسيقى

آملين في العودةِ من حيث جئنا :

- لا مخرج .

كنا نقفُ وحيدين في الظلامِ . الفخُّ ثانيةً .

ثم إذ رأيتُ على الجدارِ خارطةً للكرةِ الأرضيةِ أشرتُ اليها بإصبعي :

- ها هنا أعيش .

لا أعتقدُ أنها فهمت ما قلتُه لها ،

سوى أنها ابتسمت لي بمرارة وأشارت إلى قلبِها .



فيلم في محطة قطار

في محطةِ قطارٍ في الشتاءِ ، عائداً من سفرةٍ طويلة

وجدتُ نفسي جالساً في صالةِ سينما للعابرين

أشاهدُ فيلماً لا أعرف قصته ،

كان قد بدأ قبل وصولي .

فيلمٌ لا ينتهي أبداً ،

لا يهم من أين تراه ،

لأن كل فصولِه تتكررُ

كما الحياةُ ذاتها .

أبطالٌ يضعون أقنعةَ لصوصٍ فوق وجوههم

جيوشٌ تزحفُ في الجليدِ لتصلَ الى مدينةٍ ما



ومهرجون يسيرون أمام عرباتٍ تجرها خيولٌ منهكة
رجالٌ بأجنحةٍ من شمعٍ يسبحون في الفضاء
حشراتٌ تشق طرقَها الغريبةَ الى الكواكب
تحت شموسٍ محرقة
ثمة من يعثرُ على لؤلؤةٍ ويفقدها ثانيةً
ونحن ننزفُ على الشراشف
فوق أَسِرَّة مسافرينَ في فندقٍ رخيصٍ لليلةٍ واحدة .

متفرجون موتى ومتفرجون أَحياء .
ثمة من يدخلُ . ثمة من يخرجُ .
القاعةُ مظلمةٌ دائماً
وفيلمُنا مستمرٌ بلا نهاية .

الحفلة

لم يكن أحدٌ غائباً .

قابيلُ يسنُّ سكينَه في المطبخ

ونوحُ يتابعُ في الصالة

نشرةَ الطقسِ في التلفزيون .

كلهم وصلوا بسياراتِهم

ثم اختفوا في الزقاقِ الطويل

ذاهبين إلى الحفلة .

هناك رأينا السيدةَ الحسناءَ ترقصُ في الحَلَبَة

عارضةً مفاتنَها علينا



من وراء فستانِها الشفاف .

جلسنا مع الضيوفِ

جرعنا كؤوسَنا حتى الثمالة .

في آخرِ الليلِ

عائدين إلى بيوتِنا

أَعدنا إلى الأعمى عكازتَه الضائعة

وإلى القاتلِ بلطته الدموية .

لقد كانت حفلةً

مثل أي حفلةٍ أُخرى .



الموكب الصامت

واضعاً يديَّ في جيبيَ المثقوبين

سائراً في الشارع

رأيتُهم يتطلعونَ خلسةً إلي

من وراء زجاجِ واجهاتِ المخازنِ والمقاهي

ثم يخرجون مسرعين ويتعقبونني .

تعمدتُ أن أقفَ لأُشعِلَ سيجارةً

وألتفتُّ إلى الوراءِ كمن يتجنبُ الريحَ بظهره

ملقياً نظرةً خاطفةً إلى الموكبِ الصامت :

لصوصٌ ، ملوكٌ ، قتلةٌ ، أنبياءٌ وشعراء

كانوا يقفزون من كل مكانٍ



ويسيرون وراني

منتظرين إشارةً مني .

هززتُ رأسيَ مستغرباً

ومضيتُ وأنا أصفرُ بفمي

لحنَ أغنيةٍ شائعة

متظاهراً بأني أُمثلُ دوراً في فيلم

وبأن كلَّ ما ينبغي علي أن أفعلَه هو أن أسيرَ دائماً إلى الأمام

حتى النهاية المريرة .

من نافذة مفتوحة على شارع معتم

فيما أنا أُحدِّقُ من النافذة

منصتاً لضجيجِ الغزاةِ في الشارع

يقودون عرباتِهم في الظلام

متبوعين بغلمانٍ يضربون على الدفوف

وعبيدٍ أَسرى في السلاسل

تلجأُ الأشباحُ اليّ ، طارقةً بابَ بيتي :

الجلادُ وضحيتُه

الملكُ ومهرجُه

وكاتمُ الأَسرار .

يأتي الجلادُ ليغسلَ يديه الملطختين بالدمِ تحت حنفيتي



تأتي الضحيةُ وتقدمُ لي قدحاً من دموعِها المالحة
يأتي الملكُ وينصبُ عرشَه في حديقتي
يأتي المهرجُ ويعرضُ أَلعابَه أَمامي
يأتي كاتمُ الأَسـرارِ ويكشفُ أَسرارَه لي .

أُشعِلُ آخرَ شموعي ،
أَقِفُ أَمامَ النافذةِ في الليل :
ثمة كثيرون سوف يطرقون بابي
قبل حلولِ الصباح .

الزائر

في منتصفِ الليلِ ، اذ نُدَفُ الثلجِ تهمي كقطنٍ منفوشٍ ، جالساً في غرفتي أمام المدفأة ، منصتاً الى أغنيةٍ ألمانيةٍ شعبيةٍ في المذياع عن بلبلٍ مات في قفصٍ وأميرةٍ ضائعةٍ في غابة ، سمعتُ قرعاً على النافذة ، خفيفاً مثل قطراتِ مطر . أحدٌ ما كان يهمسُ بصوتٍ سمعته بالكاد ، معلقاً في الفضاءِ الأبيضِ أمام الطابقِ الخامسِ من العمارةِ المعتمة . صوتٌ كنت قد عرفته قديماً ثم نسيتُه في دورةِ الأيام . ملصقاً وجهَه بالزجاجِ ناداني باسمي مردداً : «دعني أدخلْ أخيراً . إنّي أكادُ أموتُ برداً .» فاتحا النافذةَ رأيتُ عينين صغيرتين تحدقان فيَ ، مبتسمتين ومبتهجتين . وإذ رآني أقفُ مذهولاً دخلَ وعانقني ، وقال لي بمودة ، واضعاً يده على كتفي : «مرحباً ، أنا أخوك ، جئتك من كوكبٍ بعيد .» ثم رفرفَ بجناحيه الملونين مثل فراشة واستلقى على سريري معتذراً : «أريدُ أن أنامَ قليلاً ، فقد أمضيتُ الأَبديةَ كلَّها في الطريقِ إليك .»

حياة مع الجرذان

مقرفصين في الظلام
نأكلُ من ماعونٍ فوق جريدةٍ مفروشةٍ على الأرض
كانت الجرذانُ تثبُ وتخطفُ الطعامَ من بين أَصابعِنا
ثم تقفُ أمام جحورِها
متأهبةً لغارةٍ جديدة .
وفي الليالي الباردة
كانت تندسُّ بين أفخاذِنا
فنرى جرذاً عملاقاً في غابة
يجرُّ وراءه فتاةً باكيةً
مربوطةً من عنقِها بحبل .

في الصباحاتِ ، سامعين البلبلَ يُغرِّدُ فوق الشجرة
كنا نحملُ براميلَ بولِنا
وندلقُها في الساقيةِ أمام المخفر
عاندين بالفطورِ الذي أعدّتهُ لنا امرأةُ شرطيٍّ
ضاجعناها ألف مرةٍ في أحلامِنا .

وإذا ما حلَّ المساءُ
كانوا ينادون علينا واحداً بعد الآخر
ويعلقوننا من أكتافِنا بالمراوح
فتتساقطُ الجرذانُ
من طياتِ ثيابِنا ،
معولةً تحت السياط .

بعد سنينٍ أو ربما بعد قرون
التقيتُ ثانيةً ذاك الذي خلّفتُه ورائي في غَيابةِ الجُبِّ :
كان لا يزالُ صبيّاً يافعاً يرتدي بيجامتَه كالعادة .
رفعَ رأسَه وحدَّقَ بي طويلاً
ثم مضى مسرعاً في طريقِه .
أَعتقدُ أنه كان قد نَسِيَني في زحمةِ الحياة .



أنخاب

رغم أَنني ثملٌ وحزينٌ وعاجزٌ عن الكلام

إِسمحوا لي أَن أَرفعَ كأسي لآخرِ مرةٍ وأَشرب :

نخبَ الأعمى الذي يرى في الظلام

نخبَ الأخرسِ يُكلِّمُ اللهَ فوق الجبل

نخبَ الأَطرشِ يستمعُ الى موسيقى الأبدية

نخبَ الشاعرِ يسرقُ النارَ من الآلهة

نخبَ اللهِ يصنعُ عالماً أفضلَ في المرةِ القادمة

نخبَ الشيطانِ يخسرُ رهانَه ويعودُ الى الجحيم

نخبَ الأمِ تحت قدميها الجنة

نخبَ الحبيبةِ تنتظرُ على الساحل

نخبَ الصديقِ الذي لا يُنكِرُنا حتى إِذا صاحَ الديكُ ثلاثا

نخبَ الخنّاسِ الذي لا يوسوسُ في قلوبِ الناس

نخبَ المشنقةِ تنحني للمشنوق

نخبَ الجلادِ يجلدُ نفسَه بالسوط

نخبَ الضحيةِ تنهضُ في عذابِها

نخبَ العصفورِ يُغادر قفصَه

نخبَ المنفى لم يوهن عزائمَنا

نخبَ الوطنِ تجري من تحتِه الأَنهار

نخبَ الحريةِ حتى النهاية

نخبَ العالمِ ملكاً مُشاعاً للجميع

نخبَ الحُكّامِ نعينهم حراساً في المتاحف

نخبَ الشجرةِ عميقةٌ جذورُها في الأَرض

نخبَ القمرِ يستمعُ الى شكاوى العشاق

نخبَ الشمسِ في بردِ شباط القارس

نخبَ الكواكبِ تهدرُ منذ الانفجارِ الاول

نخبَ الجنةِ فوق الأرض

نخبَ الجحيمِ نُغلقُ أبوابَه بالإسمنت

نخبَ الماضي يقصُّ علينا ذكرياتِه

نخبَ الحاضرِ يتدفقُ مثل نهرٍ في الشوارع

نخبَ المستقبلِ نصعدُه بلا سلالم

نخبَ هذه الحياةِ الجميلةِ القصيرة .



ليلة الفامبير

في حانةٍ في ترانسلفانيا ذاتَ مساء

صادفتُ رجلاً نحيفاً بقبعةٍ أسطوانية

وعباءةٍ سوداءَ من الحرير

قال لي إنه يُدعى الكونت دراكولا

وإنه قد خرجَ لتوه من تابوتِه الوثير

لاصطيادِ الفتياتِ الجميلاتِ

العائداتِ من الديسكو .

لم أُصدِّقه بالطبع ،

فدعاني الى قبوِه لنشربَ كأساً من النبيذِ الأَحمر

في نخبِ مؤلفِه الايرلندي

برام ستوكير .



هناك إذ رفعَ قبعته

وكشّرَ في وجهي

رأيتُ العناكبَ تسرحُ في شعرِه

وأنيابَه تقطرُ دماً .

لا أَعرفُ كيف نجوتُ منه بعد ذلك

وبأي عصا صددتُ عني ذنابَه التي طاردتني في الشوارع

ربما هرعَ البروفيسور فان هيلسنغ لنجدتي

ربما علَّقَ أحدٌ ما قلادةً من الثومِ في عنقي

ربما انقلبت لوسي الجميلةُ خفاشاً أَسودَ

فتبعها حتى الخرائبَ في الضباب .

كل ما أذكرُه الآن هو انني عندما نهضتُ من نومي

وجدتُ نفسي قد أمضيتُ تلك الليلةَ الرهيبة

مكوماً على نفسي فوق الأريكة في الصالة

ودراكولا يعوي أمامي في شاشةِ التلفزيون

محترقاً في ضوءِ الشمسِ ينسلُّ من النافذة .



في الدقيقة الأولى بعد العدم

الى *Stephen W. Hawking*

لا ديناميت لنسفِ المبنى

لا اوكسجين لإشعالِ النار

لا إسفنجة مبللة بالدموعِ لغسلِ الجثة

من فائضِ الموت .

ساحرُ الفضاءِ يلتقطُ في العتمة

بكاميرتِهِ القديمة

صورةَ وردةٍ تنفجرُ في صقيعِ الكون

بينما الأشباحُ تثقبُ نواة الذرة

بأظافرِها المعدنية

موصلةً أسلاكَ قلوبِها

ببطارياتٍ شمسيةٍ مستهلكة



نهتدي بضوئِها الواهن
سائرين بخطٍ مستقيمٍ كالعادة
للوصولِ الى البحرِ المحيط
طارداً وحوشَه الى اليابسة .

لقد دفعنا الثمنَ غالياً :
١٥ مليون درجة مئوية
للحصولِ على أشعةِ غاما
في السوقِ السوداء
ملياراتٌ من الأيدي المتروكةِ في المصانع
لبعثِ الروحِ في روبوتٍ ميت
الوفٌ من الشموسِ المطفأة
للعودةِ ثانيةً الى مدارِ الجدي .

في البدايةِ تأكدْ من النهاية
قبل الركونِ الى الصدفةِ العمياء
فالبرابرةُ في سفنِهم الفضائية
سوف ينتظرون وصولَك في طروادة



عارفين أنك تعودُ دائما

الى النقطةِ ذاتِها ، قبل العدم .



النياندرتال الحزين

جريحٌ متروكٌ

يطاردُ وساوسَه بعصا

داخل غابةٍ

تبزغُ في حلم

وآخرُ برأسِ كلبٍ

يعوي مترصداً غزالةً ذهبيةً

تعدو في سهلٍ بلوري

منذ قديمِ الزمان .

أبطالٌ تراجيديون

ينحدرون من ثقبٍ في قبةِ السماء

يلتقطون رؤوساً مقطوعةً ويغيبون



ناسين خطيئتَهم الأولى

في الطريق الى الجحيم .

كلهم يأتون ويقفون معنا على الشرفات

بخوذِهم

ويلوحون بأعلامِهم المهلهلة

للنياندرتالِ الحزين

داخلاً الى مغارتِه في الظلام

منقباً عن شَفْرَةٍ حلاقة

يقطعُ بها حبلَه السُّري

وعن خرقةٍ

يمسحُ بها دمَ أَسلافِه الغابرين .

جريحٌ يتكئُ على شجرةٍ في غابة

ويطلقُ رصاصتَه الأَخيرة

في ليلٍ قطيعٍ من الذئاب .



المهرجان التنكري

وجدت نفسي في مهرجان تقيمه حديقة . ما كان ينبغي للبواب العجوز ان يطردني ما دمت أضع قناعي على وجهي ، هكذا هي القاعدة : لا أحد يؤخذ بجريرة غيره . تسللت مع مهرجين رسموا دوائر حمرا حول عيونهم واقتنوا أنوفا منقارية من متجر ياباني قرب متجر للذخيرة . وقفت في المدخل أستقبل الضيوف . دخل هارون الرشيد فوق حصانه الذي أمسكت بلجامه وقدته الى المعلف . هبطت الساحرات من السماء فوق مكانسهن ، جالدات الريح بالسياط وغنت كليوباترة على الاكورديون كالعادة بينما الثعبان يلتف حول عنقها متلويا كمن يستعد لقبلة طويلة . واخيرا وصل البرابرة شاهرين سيوفهم : هولاكو وجنكيزخان ايضا .

خائفا على نفسي غادرت الحفلة من فتحة في الجدار . غدا سوف أقرأ في الجريدة تفاصيل المعركة كلها .

في شوارع العالم




مكتبة
الفكر
الجديد

لم يعد هناك ما يحدث في أحلامي

لم يَعُدْ هناك ما يحدثُ في أَحلامي :

لا طائرُ رخٍ يجثمُ فوق بيضتِه

ناشراً جناحيه على الهضبة

ولا أَرخبيلُ بلوري

يهجره القراصنة

قاصدين جزيرةً أخرى .

لا براكينُ تنفجرُ في البحر

ولا زلازلُ تضربُ اليابسة .

لم يعد هناك ما يحدثُ في أَحلامي :

لا وحوشٌ تخرجُ من الماءِ في الضباب



وبين أَسنانِها حورياتٌ معولات

لا نساءٌ ينتحرن بعد حبٍّ فاشل

ولا شعراءُ مجانين

يهيمون على وجوهِهم ليلاً في الطرقات .

لم يعد هناك ما يحدثُ في أَحلامي :

لا حروبٌ تنشبُ

لا مواكبُ تسيرُ في الأَعياد

لا مراكبُ تصلُ

ولا روبوتاتٌ تقودُ دراويشَ تائبين الى الجنة .

لم يعد هناك ما يحدثُ في أَحلامي :

الشارعُ مقفرٌ كالعادة

وعليَّ أَن أَصِلَ الى البيتِ

قبل هطولِ المطر .



المقامر

ضعِ العالمَ أمامكَ على المائدة

وقامرْ عليه قطعةً ، قطعة!

قامرْ على الشمسِ والقمرِ أولا

فاذا خسرتهما

سيظل لك ضوءُ النجوم .

قامرْ على الأشجارِ في الغاباتِ والحدائق

فاذا خسرتها

قامرْ بعدها على الصحارى والبحار!

قامرْ على المدنِ والقرى والشوارع

لقد أَحببتَ الكهوفَ والمغاورَ دائما .

قامرْ على الذهبِ والفضة

إذِ يمكنكَ أن تملأَ خزائنَك بالترابِ أيضا .

قامرْ على الآلهة

فاذا خسرتَها سيظل لك الشيطانُ على الأقل

جالساً ينتظرُكَ ، نافدَ الصبرِ

أمام غرفتِك المليئةِ بالدخان .

ثم قامرْ على كل شيءٍ دُفعةً واحدة!

ماذا يهمك أن تربحَ او أن تخسر

مادمتَ تعرفُ أنك سوف تلعبُ ثانيةً

حتى النهاية ؟

كتاب الأكاذيب

بعد نصفِ ساعةٍ من الطيران

في الطريقِ من لارنكا الى برلين

أَعلنت اَلمضيّفةُ الجميلةُ في المايكرفون

أن أحدَ محرِّكي الطائرةِ قد عَطَل

ولذلك سنعودُ من حيث جئنا

خشيةَ السقوطِ في البحر

طلباً للمزيدِ من الأمان

وما عدا ذلك فان كلَّ شيءٍ على مايرام .

ألقيتُ نظرةً الى الغيومِ المتراكمةِ من النافذة

وفكرتُ مرعوباً ليس عدلاً أن أموتَ هكذا

في مثلِ هذا اليومِ الساحر .



أخذتِ الطائرةُ تختضُ كشاحنةٍ عتيقة

هابطةً فجأةً في بئرٍ بلا قرار

فيما البحرُ بحيتانِه ودلافينِه الراقصة

يفرشُ تحتنا

سجادتَه الزرقاء .

لا بد أنني كنتُ أوشكُ أن أموتَ رعبا

عندما ابتسمَ جاري الأميركي الجالسُ لصقي

وقال لي مطمئناً : لا تخفْ ، كل هذا هُراء

لا تسقطُ الطائرةُ قط لأن محركاً فيها قد توقف .

ثم راح يروي لي قصصاً مرعبةً عاشها بنفسه

عن طائرةٍ مات قبطانُها ذات مرةٍ بالسكتةِ القلبية

فوق براري إفريقيا الخضراء

وثانيةٍ ابتلعت محركاتُها طناً من الطيور

فوق جبالِ نيفادا القاحلة

وثالثةٍ عصفت بأجنحتِها الرياح

في سماءِ المحيطِ الزاخرِ بالأقراش .

لكنه كان ينجو دائما

لأن الطائرات

أكثرُ وسائلِ النقلِ أماناً في العالم .

عندما حطت الطائرةُ أخيراً في المدرج

وتنفسنا الصعداء

أخرجَ جاري الأميركي من كيسٍ معه

نسخةً من كتابٍ أهداه لي ثم صافحني مودعاً :

لا تنسَ أن تقرأه ، إنه آخرُ أعمالي

« كتابُ الأكاذيب » .

ذات ظهيرة في المقهى

قبعته في يده دخل هاينريش بول مقهاي الأثير في كودام ، محيطا بذراعه خصر كاترينا بلوم التي كانت قد فقدت شرفها ذات مرة ثم عثرت عليه ثانية في سرداب البيت . أقبل النادل مرحبا فمازحه : «أين كنت يا آدم ؟» ، طالبا قدح بيرة من البرميل . البليارد صباحا مع جنرال موسوس ظل يهذر طوال الليل : «أيها المتجول هل تأتي الى سبا . . . ؟» والحرب مساء في الخنادق الطينية البعيدة . وضع الأمير فنجان القهوة أمامي وانصرف الى الدكتور موركس الذي جمع صمته المختار في كتاب جيب كان يوزع مجانا في العيادات . رؤوس المارة تهتز فوق أكتافهم ، اذ ثمة مهرج يأكل الحشيش على الرصيف . من بعيد تطلق شجرة زيزفون وارفة قبلاتها في الهواء ، معلنة عن وصول نيتشه ، بشاربه الفكاهي الكث ، حاملا تحت أبطه ديكا أسيرا يولول ، الى زرادشت الذي كان ينتظره في شعب الجبل ، ليقيم

له وليمة الوداع . وفي أعقابه سار السوبرمان ، ممتطيا حصانه النحاسي الذي عبر به البحر الى هذه القارة الجديدة . هممت أن أتبعهما مثلما تقتضي الأصول ، لولا ذلك اللعين مفيستو الذي دخل مسرعا وجلس على الطاولة أمامي ، مقدما لي عقد رهان أبرمه مع الله حول روحي المسكينة ، لم يكن ينقصه سوى توقيعي . مرتبكا أطلقت ضحكة مدوية وخرجت الى الشارع ، راميا قطعة نقد صغيرة في قبعة المهرج الذي كان يسير على حبل مشدود بين برجين .



جنود الليل

ـ «ليغتصبْ أمك فوجٌ من الجنودِ الألمان !»

هكذا كان يشتمُ الكبارُ بعضَهم الآخر

في مدينتي الصغيرةِ البعيدة

قبل أربعين سنة .

محدقا في الأفقِ البعيد

كنت أقرفصَ وأُحدقَ بألمٍ طيلة يومي المقتول

في الأم الحزينة

ينتهكُها ألوفُ الجنودِ العائدين

من معركةِ ستالينغراد

ببساطيلهم المتهرئة ومعاطفهم الرثة ؟



لم يكن ثمة من يقولُ لي الحقيقة
لذلك ظللتُ أَسهرُ كلَّ ليلةٍ
رائياً جيوشاً من الجنودِ الموتى يقطعون شارعَنا ليلا
جارين وراءهم مدافعَهم الصدئة
راطنين العربيةَ بلكنةٍ ساكسونية .

أذكرُ أَني قد خرجتُ اليهم مراراً
وقلبي عامرٌ بالهلع
حاملاً بيدي فانوسَنا الزيتي
لأُقدِّمَ لهم سيجايرَ أبي المتروكةَ فوق المنضدة
حتى يتركوا مدينتَنا بسلام
لكنهم كانوا يشيحون بوجوهِهم دائماً عني
ويسيرون غائبين في الظلام .

المرثية الروسية

لأن الرسولَ القادمَ من سيبيريا لم يصلْ

زرعوا جثثَ القياصرةِ في الساحةِ الحمراء ،

حيث يقفُ لينين عادةً على الشرفة ،

يُمسِّدُ لحيتَه المدببة

كفرشاةٍ بيدِ رسامٍ ولد لتوه من الحلم

قادماً بقطارِه الألماني المغلقِ من فائضِ آلامِ العمالِ

ليحيي مواكبَ الحفاةِ المسلحةِ في بطرسبورغ ،

خارجين من كهوفِ الدببة

ليجلدوا ظهرَ الزمانِ بالأناشيد

التي سوف ينساها عبيدُ المستقبل

كصرخاتٍ مبذولةٍ على مائدةِ التاريخ .



ملايينُ الرؤوسِ قُطِعَت :
دستويفسكي قامرَ على ضحاياه وخسرَ آخِرَ كوبيك في جيبه
جارعاً النبيذَ في قبوِ أميرِه مشكين
بوشكين سقطَ مُتَضرَّجاً بدمانه
في نزالِه الأخيرِ مع الشيطان
وتولستوي أفلتَ من يدِ ستالين ،
هارباً الى قرى الأَقنان .

أَعرفُ أن أجملَ الأحجارِ هي التي جَرَفَها الطوفان
أجملَ العادلين هم الذين لم نعرفهم يوماً
أجملَ الأشجارِ هي التي اقتلعتها الجرّافات
أجملَ الأطفالِ هم الذين لم نسمعْ صراخَهم في الزنزانات
أجملَ القصائدِ هي التي كَتَبَها الملل .

روسيا ، روسيا
كلُّ شيءٍ انتهى
فخُذي جنازةَ ميتكِ الحالمِ الى بيتِك البارد
أَشعلي له شمعةً صغيرةً في كنيسةِ ثوراتِك المخبَطة

ثم ادفنيه سراً

في صقيعِ تاريخكِ الدموي الطويل

واتركي لنا حُلُمَنا الدائمَ بالصعود الى أعلى الجبال ،

قوسَ قزحِنا الذي سنضيءُ به ودِيانَ المستقبل ،

كآخرِ وأصعبِ مهمةٍ في حياتِنا ،

منتظرين وصولَ رسولِنا الذي انتظرناه دائماً

رغم كل الخسائر .



ثمن

أَصدرت الحكومةُ قانوناً

يُلزم الضحية

بأن تدفعَ لجلادِها

ثمنَ الرصاصِ الذين سوف تُعْدَمُ به .

لم نأبه لذلك .

كنا جميعاً نحملُ في جيوبِنا

وثائقَ تثبتُ فقرَ حالِنا .



مغامراتي مع أبطال قصائدي

أميرة نائمة في مخدعها .

ثمة وحش يحدق في جسدها العاري

من وراء ستارة شفافة .

هل أقرع الجرس ؟

شاعرفي حديقة

يتسلق شجرة

ويختفي بين أغصانها

هل أصعد لأبحث عنه ؟



عجوز متقاعد

يقرأ مستغرقا في رواية بوليسية

عن لص يأخذه معه في غزواته الليلية

فتقبض عليهما الشرطة

هل أشهد لصالحه ؟

ناسيا كل حيرة ، بادئا كل قصة من جديد

أذهب وأوقظ الأميرة من نومها ،

أطرد الوحش إلى مغارته .

وشاعر الحديقة أعيده إلى حديقته

ليتسلق الشجرة ثانية

واللص العجوز أطلق سراحه

ليكون أكثر حذرا في المرة القادمة .

في النهاية أصافحهم واحدا واحدا

ثم أخرج معهم إلى الشارع

لنقوم بمغامرات جديدة .



في قارب الحياة

ثمة ما يحدث دائما :

حرب تعلن فجأة

طفل يولد في مغارة

قلب ينفطر ألما .

هل أجرؤ أن أنسى ذلك ؟

ثمة ما يجري دائما :

ماء في نهر

نبيذ في حانة

دموع ودم أيضا .

هل أقدر أن أوقف ذلك ؟



ثمة ما نفتقده دائما :

جملة حفظناها عن ظهر قلب

مظلة أضعناها في مقهى

إمرأة أحببناها بكل جوارحنا .

هل يمكن أن أسعد بذلك ؟

ثمة ما لا يحدث أبدا :

أن أربح مليونا في اليانصيب

أن أعثر على كنز في حديقة بيتي

أن أسافر الى القمر .

هل ينبغي ألا أحزن لذلك ؟

في مزرعة العنقاوات

أيها الكاهن ، أيها الكاهن الأعلى

لقد رأيتك تنسل إلى هذه القصيدة في غفلة مني

حيث ألف عنقاء

تسرح في مزرعة ممتدة بين الفصول

ومسيجة بالأسلاك المكهربة

لقد رأيتك تملأ أقفاصك بها ،

تأخذها إلى الشوارع وتتركها تعدو فوق الأرصفة

مزقزقة وراءك

حتى المشهد الأخير

في زمن الأموات .

لقد رأيتك تطلقها داخل تاريخك العقيم

وتقذفها في النار .

أيها الكاهن ، أيها الكاهن الأعلى

في تنورك رأيت عاصفة تنفث جرذانا

في الرماد رأيت جلادين يحملون بلطاتهم في أيديهم

في الخرائب رأيت ضفادع تبحث عن مستنقعات

في الليالي رأيت ذئابا تعوي .

أيها الكاهن ، أيها الكاهن الأعلى

دع عنقاواتنا بسلام

وأخرج من هذه القصيدة .

الدليل

ألف عام في الطريق

وما من أحد وصل .

تركنا الأبواب مفتوحة للرياح

وأشعلنا نيراننا في كل القارات .

العصفور الأعمى

سوف يدلنا

إلى الينبوع .



الرجل اللامرئي

أحدٌ ما يسيرُ في غابة

وأنتَ تسيرُ وراءه .

الأوراقُ تطقطقُ تحت قدميك .

يلتفتُ مذعوراً

لكنه لا يراك .

تسمعه يرددُ بصوتٍ عالٍ :

ـ ثمة أرنبٌ دائماً بين الأشجار .

إذهبْ واصفعه على قفاه

ليُطَهِّر قلبَه من الأوهام .

إصعدْ في عربةٍ مهجورة

وقُدْها وسط المدينة



جيئةً وذهاباً

ليفغرَ ألفُ شرطي فاه من الدهشة .

في كل جريمةٍ فاعلٌ خفي .

إذهبْ واقرعْ ناقوسَ كنيسة

لعل القسسَ يعرفون أَخيراً

بأن المخلِّص قد وصل .

كل معجزةٍ هي طريقةٌ في الحياة .

أحدٌ ما يسرقُ بنكا .

ما همّك من خازني الأموال ؟

دعِ اللصوصَ يسرقوا اللصوص

مادمتَ سوف تسلبُهم غنائمَهم في النهاية

لتوزِّعها على الجياع .

من لا يحب روبين هود ؟

الحياةُ جميلةٌ حقا .

كل ما يُعوِزُها رجلٌ يملكُ ما يكفي من الوقت

وقنينةٌ من عقارِ الـ Monocaine* .

---

* Monocaine هو الإسم الذي أطلقه H. G. Wells على العقار الذي يستخدمه بطل رواية « الرجل اللامرئي » .

رجل المرايا

كل يوم يقف الرجل الذي يشبهني ، منتظرا إياي في المرآة . يحدق في وجهي لحظة ثم يهزرأسه راثيا لحالي . واذا ما زعقت به أخرج لسانه ، ساخرا مني وراح يدندن بأغنية لم يكن يعرف سوى المقطع الأول منها .
أحيانا أرفع قبضتي وأهدده بالضرب فيرد علي هو الآخر ، رافعا قبضته ، مهددا اياي . ثم يهدأ ويطلق ضحكة ماكرة قبل أن يغسل وجهه بالصابون ، فأفعل مثله ، كما لو أنه ساحر ينوم ضحاياه .

ناهضا في الصباح ابتسم في وجهي هذه المرة على غير عادته اذ عرف أن لي موعدا مع فتاة سوف تنتظرني في المقهى وقال لي بمكر : «لا بد من الأناقة في مثل هذه المناسبات .» ففضلت أن أسكت . ماذا اقول له ؟ تجاهلني ثم راح يحلق ذقنه بهمة ، مرددا أغنيته الناقصة . بدا قريبا من قلبي بعض الشيء حتى انني تركته يفعل ما يشاء وذهبت لأرتدي بدلتي الزرقاء . عندما

عدت لأمشط شعري وأرش العطر على وجهي وجدته قد ارتدى مثلي بدلته الزرقاء وراح يمشط شعره ويسكب العطر على وجهه ، كما لو انه يملك هو الآخر موعدا مع فتاة سوف تنتظره في المقهى . قرصت أذنه ، مداعبا : «كلا لن تأتي معي ، ستظل هنا في مرآتك .» ثم خرجت متجاهلا شتائمه . في المقهى وجدته أمامي ، يسير مقلدا مشيتي . قلت : «سوف أحرمك أيها الجاسوس من متعة مطاردتي .» أغمضت عيني وأمسكت بيد فتاتي ، جارا اياها الى الشارع ، تاركا إياه يختفي في زاوية من المرآة المعلقة على الجدار .



مكتشف سيء الحظ

رسم المكتشف بحرا

أجرى في وسطه سفينة ورقية صعد فيها

وأعلن نفسه قبطانا

لمحيطات العالم

قاصدا الوصول الى قارات لم يبلغها إنسان من قبل

مثل كولومبوس جديد

مأهولة بالهنود الحمر

وعامرة بمناجم الذهب

لكنه ـ ويا لسوء حظه ـ

كان قد نسي أن يجلب معه بوصلة

يهتدي بها وسط الظلمات



فغرقت سفينته

حتى قبل ان يعثر على صخرة نابتة واحدة

يقف عليها

وراح يصارع الأمواج الهائجة

طالبا النجدة

بدون أن يسمعه أحد .

الجارية المنتظرة

في القبو الذي أَغلقوا بابَه علي
خرجت جاريةٌ من الجدار
وغنت لي قصةَ حياتها
ثم قدمت لي مفتاحَ قلبها الذهبي وغابت
تاركةً قبلتها اليائسة
فوق فمي .

أعوامٌ ، أعوامٌ طويلةٌ مرت علي
قبل أَن أَضع المفتاحَ في القفل وأخرج .

كانت تقفُ هناك
أَمام الباب
تنتظرني بصمت .

القرية الظالمة

لم يعد لك ما تفعلُ الآن في هذه القريةِ الظالمة

العدو هنا والعدو هناكَ ،

وأنتَ تسيرُ على الجمرِ في زحمةِ العابرين

لم تعد في السماءِ نجومُ تُضيءُ لياليَك القاتمة

الذئابُ تجوسُ الشوارعَ ،

والمهرجانُ القديمُ انتهى

واختفت في الحدائقِ أشجارُها

والقوافلُ مرت بلا ضجةٍ

واختفت . كلهم إختفوا في المغاورِ بين الصخور

او أضاعوا الخطى في القفار

فبقيتَ وحيدا هنا ،

مانحاً قلبَك المزدهي للجنون

صابغاً وجهَك المحتفي بالوقار .

فارتحلْ قبل أن تجرفَ العاصفة

بيتَك الورقيَّ الذي شيدته العناكبُ في العَتَمَة

حاملاً بيمينِكَ دفترَ أعمالِكَ الموبقات

واقفاً مثل جندي حربٍ أسير

في حضورِ الملاكِ المقدَّمِ في المحكمة

لا تجادلْ ودعهم يقولوا الذي يشتهون .

ما الذي سوف تخسرُه الآنَ في هذه اللعبةِ القائمة

بعد أن قد رأيتَ الحقيقةَ عاريةً

تتجولُ فوق رمادِ العصور

والأكاذيبَ تجلدها بالسياطِ الى المحرقة ؟

العدو هنا والعدو هناكَ ،

وأنت تسيرُ الى المشنقة .

لم يعد لك ما تفعل الآنَ في هذه القريةِ الظالمة .

حروب

ملوكٌ يختبئون في دهاليزِ ممالكِهم

وزراءُ يتقدمون الصفوف

ويقودون المعركة .

قلاعٌ تسقطُ فجأة

جنودٌ فلاحون يقتلون جنودا

حصنٌ تخبُ فوق الجثث

وفيلةٌ تقتحمُ الصفوف .

دماءٌ كثيرةٌ تسيلُ دائما

ونحن نتفرجُ فوق مقاعدِنا صامتين .

لاعبون بوجوهٍ صامتةٍ يخزرون بعضهم

وبيادقُ تصهل

فوق رقعةِ الشطرنج .

طريق يقودني إلى البدايات كلها




مكتبة
الفكر
الجديد

وليمة الحكماء

مُضلّلين اللصوص

نُخبئُ الروحَ الطاهرةَ في الثلاجة

بعينيها المقلوعتين

نعلقُ خارطةَ الزلازلِ على الجدار

ونثرثرُ حول آينشتاين وثقوبِه السود .

في المطبخِ نجلسُ وندخن :

الماءُ الثقيلُ ، مخلوطاً بالنعناعِ ، يغلي في إبريقِ الشاي

بينما الدجاجةُ العمياءُ التي تبيضُ ذهباً تُشوى في الفرن .

وصل الحكماءُ أَخيراً .

تقول سالمة : «سوف أُعِدُّ فطورَ الملائكةِ لضيوفنا .»

ننتقلُ الى الصالة

ونَنتظرُ قهوتَنا .

لقد غدتِ الحياةُ باهظةَ التكاليفِ حقاً :
كل هذه الفرضياتِ لقياسِ انحناءِ الضوء
كل هذه الضحايا لكسبِ حربٍ ما
كل هؤلاءِ الفراعنةِ لخُطبةِ مومياء .
ولكن لا أحدٌ يتحدثُ عن ذلك في هذه الأيام
لا أحدٌ يسألُ عن الآخرين
لأنه ما من قرائنَ على أي شيء
لأن ما هو موجبٌ سالبٌ أيضا
مثل كل أملٍ ، مثل كل شك .

ثمة قبائلُ غريبةٌ تائهةٌ بين المجرات .

في حديقةٍ نائية
نضطجعُ تحت النجوم
ونسترجعُ ذكرياتِنا يوم كنا في الفردوس .



هناك من ينتظرك تحت المصباح

ناسين أَعوامَنا في الأَدراجِ ، نذهبُ بسراويلَ باليةٍ الى حفلةِ أصدقائنا الموتى ونشربُ أَنخابَهم فوق عشبِ الحدائقِ في حضورِ أمهاتهم . الساعة الثانية عشرة . حلَّ الربيعُ في المدينةِ أخيراً . آهِ ، لا تقلْ ، تأخرنا كثيراً ، اذ ثمة دائماً بهلولٌ متجولٌ يقفُ تحت المصباحِ ، منتظراً إياك ليهمسَ في أذنيك كل ما كنتَ قد سمعته من قبل .

جلدُك المتقرنُ اتركه للفيلةِ الهائمةِ في البراري . قلْ للجدولِ الباكي أن يمر بقريتِنا القاحلة! قلْ لأيامِ حياتِنا الضائعةِ أن تتذكرنا ، إِذ كنا مرميين في الغابةِ ، يائسين وحزينين .

صخورٌ ، صخورٌ كثيرةٌ ، مقذوفةٌ في الفضاءِ ، تتدحرجُ عبر عروقِنا . الجبلُ

الأَخيرُ نصعده في عربةٍ تترجرجُ وراء بغلٍ هزيلٍ ، بينما الرعاةُ في أسفلِ الوادي ينصبون فخاخَهم للنسور .

أرديةٌ قديمةٌ وأقنعةٌ سودٌ متروكةٌ في خيمة ، جلدُ دبٍّ ميتٍ في مغارة . خاتمُ سليمان في فمِ السمكة . مساءً نهبطُ من الجبلِ ثانيةً الى السهلِ ، تُسحرُنا أضويةُ سفنِ فضاءٍ ساكنةٍ ، قادمةٍ من مجراتٍ بعيدةٍ أُخرى ، واثقين من الوصولِ الى حفلةِ الأحياءِ ، كما فعلنا دائماً ، في الوقتِ المناسب .



الى إرنست همنغواي وسمكته العجيبة

في خضم الأمواجِ الهائجةِ ، إذ الليلُ يئنُّ كقطٍ جريحٍ
رمينا بأثقالنا لدوابِ البحر الهائمة
فيما الأقراشُ تنهشُ بأسنانِها المنشارية
قطعةً قطعة
سمكةَ حياتِنا التي شددناها الى قاربِنا الهزيل
طالبين النجاةَ بجلودنا
في رحلةِ الأقدار .

كالذئبِ وحيداً في صحرائه يتقدمُ هذا الذي يعرفُ ما كان وما سيكون
على دربه فانوسٌ يتلألأُ في الساحلِ مثل يدٍ هاديةٍ من بعدٍ
منصتاً للريحِ تقصُ عليه أساطيرَها القديمة



كراويةٍ يجلسُ فوق عرشِ الزمان .

عندما بلغنا المرفأَ أخيراً في ذلك الفجرِ المجلّلِ بالضباب
وقفنا طويلاً مفكرين أمام حوتِنا المأكول .

ماذا يهمك أيها الصياد
إذا لم يكن قد بَقِيَ من سمكتِك سوى العظام ؟
يكفي أنك قاتلتَ من أجلِها ببسالة .

وأخيرا أصل الى مدينة نائية

وأخيراً أصلُ الى مدينةٍ نائيةٍ وراء جبلٍ في الظلام ، أقرعُ بابَها المغلقة وأنادي حراسَها النائمين ، فيطلُّ من كوةٍ في سورها المنيع موظفٌ يطردني ، لاعناً : "لقد أخلفتَ الموعدَ ، فعدْ أدراجك وانتظرْ بطاقةً أخرى منا في البريد! " فأرجعُ مقهوراً ، تاركاً أحلامي تقتاتُ من عسلِ أعضائي الميتة ، سائراً من قريةٍ الى أخرى ، حيث أقزامٌ في غابة ، يدلونني الى معابدَ يقدمُ لي رهبانُها الميتون آخر ما في كؤوسهم من نبيذٍ مقدسٍ أجرعه حتى الثمالة ، شاتماً الآلهةَ فوق أعمدتِها الطويلة .

في الطريقِ ، في الطريقِ الذي يقودُني الى البداياتِ كلها أرى أعراباً يمرون أمامي ، تتبعهم عواصفُهم ، أنبياءَ يقودون سياراتٍ فارهةً في شوارع مزدحمةٍ ، جواسيسَ يستبدلون قطاراً بقطارٍ وروبوتاتٍ فوق الدراجاتِ ،

خارجةً الى النزهة . مواكبُ أجيالٍ في مهرجانٍ ، مبهورةً تتدفقُ ، رافعةً في أيديها زهورَها وأعلامَها ، مرددةً تعاويذَها القديمة .

هناك ، وكما في الأسطورةِ دائماً يحط طائرُ اليُمْنِ على رأسي فأُنصبُ ملكاً لقبائلَ عميانٍ ، أربطهم بالسلاسلِ وأجرهم وراني عبر السهولِ الرمليةِ المنبسطةِ الى مدنٍ سوف تُبنى في الغد ، بادئاً الرحلةَ في كل مرة من جديد .

دع الكرة الأرضية وراءك

دعِ الكرةَ الأرضيةَ وراءك . ماذا تبحثُ في كوكبٍ مزدحمٍ بالجثثِ ، إذ أسلافٌ تائهون يقفزون بين الأشجار ، تطاردهم قردةٌ نازلةٌ من التلال ؟ نهارٌ فوق قارةٍ وليلٌ فوق قارةٍ أخرى . وثمة أسرابُ قطا ترفرفُ كأقواسٍ هائلةٍ في سماءٍ مقطوعةٍ بغيومٍ تدفعها الريحُ أمامها . عرباتٌ نسمع ضجةَ عجلاتِها في الطرقاتِ فنخرجُ ونصعدُ فيها ذاهبين الى لا مكان .

ما من أرضٍ موعودةٍ هنا . لا أحدَ سوى عميانٍ بنظاراتٍ سودٍ ، مقبلين من الكهوفِ وفوق رؤوسِهم أقفاصُ طيور . لا أثرَ للموتِ فوق وجوههم ، إذ ربما لم يموتوا أبداً ولا خدوشَ للزمنِ فوق جلودِهم ، إذ ربما لم يعيشوا أبداً . ما من أرضٍ موعودةٍ هنا . ها أنت ذا تراهم يسيرون بين الغاباتِ ، مسترشدين بأغصان اقتطعوها من غابة ، فتتبعُهم مهتدياً الى آخرِ حانةٍ في قريةٍ للصوص .



أنفاقٌ مليئةٌ بفئرانٍ تقفزُ من ضِفَةٍ الى أخرى غير مباليةٍ بك . أنهارٌ ، أنهارٌ كثيرةٌ . جزرٌ ومحيطاتٌ . مدنٌ وقرى . جبالُ همالايا وثلوجُ سيبيريا البعيدة .

غيومٌ لا تمطرُ . مدنٌ وشوارع . روبوتاتٌ وعمال . طيورٌ وأشجار . وثمة مسافرون دائماً . عنكبوتٌ ينسجُ شباكَه وحمامةٌ تضعُ بيوضَها أمام مغارة . ليلٌ ونهارٌ . رجالٌ ونساء . صخورٌ في كل مكان ، رملٌ وترابٌ أيضا .
الكرةُ الأرضيةُ تركتَها وراءك . منطلقاً بين السُدُمِ الأولى تلتقي مراكبَ فضاءٍ تقودُها ملائكةُ رحمةٍ ، خارجةً الى النزهة . هو ذا الكونُ ينفتحُ أمامك ، لازوردياً مثل موسيقى مكتومة . الإنفجاراتُ تتعاقبُ . المريخُ يهدر في وحدته وعطاردُ يظلل أقمارَه . في نجمةٍ بعيدةٍ أراكَ تسيرُ تحت المطر . الشفقُ القطبيُ يجرُ وراءه الدببة وصاندو الشياطين ينصبون فخاخَهم بين المجرات .

إذهبْ ، رافقتك السلامة ، لن ننساك أبداً .

في كوكب منطفئ

في الغرفةِ هواءٌ فاسد
لا أحدٌ يفتحُ النافذة .
كتابُنا نحمله بيسارنا
لا أحدٌ يطلبُ المغفرة .
الجثةُ في السرداب
لا أحدٌ يبكي .

كان علينا أن نكتشفَ النارَ ثانيةً
وأن نسددَ فاتورتَنا الأخيرة
قبل أن نُنْجِبَ طفلَنا السعيد
في أنبوبةِ مُختبر .

كان علينا أن نواسيَ أَسلافنا

قبل أن نطردَهم الى الجبال .

ما من أملٍ في العودةِ ثانيةً

الى الغابة .

زائرون غرباءُ في طبقٍ طائر

يلوحون لي بأيديهم من وراء النوافذ .

ثمة كواكبُ ومجراتٌ كثيرةٌ ، لا تُحصى

تنتظرُ وصولي منذ الأَبد

على أحرِّ من الجمر .

ماذا أفعلُ هنا ؟



الشيطان المنتظر

في يدِهِ رمحُه الفكاهية

ومن عينيه يتطايرُ الشرر

يقفُ الشيطانُ منتظراً إياي في الشارع ،

صابراً العامَ بعد الآخر

ليصطادَني ويقودَني في عربتِهِ السوداءَ العتيقة

الى الجحيم .

آهِ يا ملاكي الصغير

أنت يا من تقفُ وراء كتفي الآن

وتحرسني ضد ضرباتِ الزمنِ الغادر

أَمْسِكْ به وقلْ له :

انصرفْ ايها الشرير

واذهبْ الى الشيطان!



إذا ما دخلت مغارة

إذا ما دخلتَ مغارةً فاشعلْ شمعةً في بابِها وانتظرْ دُبّا يستيقظُ من نومِه لتمتطي ظهرَه .

ـ ربما كان جائعاً فيأكلني .

إذا ما رأيتَ غيمةً في السماءِ فارفعْ يدَك محيياً الشمسَ تتسللُ من بين الثقوب .

ـ ربما كانت قد ذهبت فتركت لي القمر .

إذا ما بلغتَ مدينةً في نهايةِ الرحلةِ فادخلْ من أوسعِ أَبوابِها .

ـ ربما كان الجلادُ ينتظرني .



إذا ما عثرتَ على لؤلؤةٍ في جوفِ سمكةٍ فارمِ شباكَك ثانيةً في النهر .

ـ ربما جاء الطوفانُ وجرفني معه .

إذا ما عبرتَ البحرَ على جذعِ نخلةٍ فقفْ على الساحلِ وانتظرِ القادمين بعدك .

ـ ربما مرت سفينةٌ فركبتُ فيها .

ولكن ماذا ستفعلُ ايها الرجلُ إذا ما بلغتَ النهاية ؟

ـ آهٍ ، سوف أضطجعُ على العشبِ وأحدقُ لآخرِ مرةٍ بالدبِ في مغارتِه والغيمةِ في السماءِ والمدينةِ تفتحُ أبوابَها والسمكةِ في النهرِ والسفينةِ في البحرِ . وبعد ذلك فليكنْ ما يكون .



صباحا، في الشارع

خارجاً الى الشارعِ في صباحٍ مبللٍ بالضبابِ ، إنتظرْ قطاراً تأخَّرَ عن موعدِهِ ، تذكَّرْ امرأةً مستلقيةً على سريرٍ ، عاريةً في ضوءِ المصباحِ ، يُحدقُ فيها ملاكٌ يجرُّ وراءه غزالةً عمياءَ في صورةٍ معلقةٍ على الجدار . تذكرْ محققين في منطادٍ ومجرمين في غواصة : رواية بوليسية استعرتَها من صديق فأشفقتَ على أبطالِها الذين تركتَهم معه ، ممنّين أنفسَهم بالعودةِ ثانيةً الى مسرحِ الجريمة . فواتيرُ عاجلةٌ لم تسددها حتى الآن . وفي الحقيبةِ تفاحةٌ ملفوفةٌ بمنديلٍ ورقي لما بعد الغداء . قنينةُ عطرٍ ماركة "جنتلمان" لإغواء الفتيات . مسدسٌ صغيرٌ اشتريتَه من ضابطٍ روسي في دريسدن ، ربما أفادَك ذات يومٍ اذا ما أردتَ الانتحار . نثارُ مطرٍ وانت تروحُ وتجيءُ على الرصيف ، محدقاً في غجرياتٍ عائداتٍ من الليل . لماذا نسيتَ هذه المرة أن تقبلَ هيلكا قبل الخروج مثلما تفعلُ دائماً ؟ آهِ ، لا تحزنْ . كلنا نرتكبُ أخطاءً صغيرةً . كلنا

نأكلُ من تفاحتِنا في وقتٍ ما ، كلنا نحملُ في حقيبتِنا قنينةَ عطرٍ
ماركة"جنتلمان" وكلنا نُخفي في وسطِنا مسدساً ربما أفرغناه في رؤوسِنا ذات
يوم . آهِ ، اطردْ هذه الأفكار الشريرة من رأسِك المعذب ، اذ ثمة دائماً وقتٌ
كافٍ لتقبلَ المرأةَ التي تحبُّ ، صاعداً في القطارِ الذي سوف يصلُ مهما
تأخر . وعندما تعودُ الى البيتِ قلْ لملاكِك الأبلهِ أن يجرَّ غزالتَه العمياءَ الى
الغابةِ ويتركَها هناك ، عائداً الى الفردوس .



عندما مات دونكيخوته من الملل

عائداً ليلاً من حانةِ القرونِ الماضية

عابراً طريقَ طواحينِ الهواءِ ، مخترقاً المقبرةَ الموحشة

كنتُ أَلتقي دائماً ، حيث تبولُ الظلالُ وراء الصخور

فرساناً يجلسون على الشواهد

يتقاسمون غنائمَ حروبِهم الماضية

ولصوصاً موتى يبزغون من قبورِهم فجأة

ويحيطون بي .

ولكن مثلما يحدثُ في القصص

كان دونكيخوته يهبُ في كل مرةٍ لنجدتي

ممتطياً فرسَه الضامرة

طاعناً الأشباحَ برمحِهِ الثاقب

وينقذني

قبل أن يواصلَ هجومَه الخالد

على طواحينِ الهواء ،

كامنةً تنتظرُه في الظلام .

هكذا ظللتُ سنين طويلةً أواصلُ حياتي الرتيبة

حتى رأيتُ طحانَ الزمانِ يسوطُ حمارَه الآلي

سائراً بدولابِه الكهربائي فوق عظامِ الغيلانِ

عاجناً الدقيقَ بالماءِ الثقيل

خابزاً أرغفتَه في الأفرانِ الذرية .

هناك أَمسكَ بي سانشو بانسا دامعَ العينين

مرتدياً ثيابَ الحدادِ

جاراً وراءه حصانَ سيده الى معلفِ الأبدية

فعرفتُ أن دونكيخوته مات أخيراً من الملل

بعد أن لم يعد ما يفعله هنا!



بكيتُ طويلاً بالطبع

قبل أَن أذهبَ معه حاسرَ الرأسِ

لأُلقي نظرةً أخيرة

على جثمانِ بطلِنا الهزيل

ذاك الذي ضحّى بأجملِ أيامِ عمرِهِ من أجلِنا

يُقاتلُ طواحينَ الهواءِ

بدون كلل .



فأرة غونتر غراس

كنتم موجودين ، تقولُ الفأرةُ ، قاضمةً آخرَ قطعةِ جبنٍ في المصيدة . شماسُ الكنيسةِ يمسحُ خشبَ المذبحِ بإسفنجةٍ مبللةٍ ويُزيلُ الغبارَ المقدسَ عن المساميرِ المغروزةِ في رجلي المسيحِ ويديه ، ذلك النسرِ المعلقِ على الجدارِ مثل تحفةٍ للزينة ، إذِ الدمُ ينقطُ على البلاطِ قطرةً قطرةً من جراحِهِ المفتوحةِ في بركةٍ قديمةٍ يحومُ حولها الذباب . أُشعلُ سيجارتي وأخرجُ الى الشرفة ، سامعاً بودلير يغني في الشارع : "للحياةِ سحرٌ حقيقيٌّ واحدٌ : سحرُ المقامرة" . أَحزنُ قليلاً . لستُ هنا لأَخسرَ . أَضعُ أَوراقي على الطاولةِ وأعودُ الى السردابِ لأقولَ : كلا ، أيتها الفأرةُ! إننا ما زلنا موجودين . الكوارثُ خلّفناها وراءنا . شاركنا نوحاً سفينتَه وأَقمنا الأَهراماتِ في الصحارى ، تذكرةً للقادمين من بعيد .



ما الأملُ أيها المقامر ؟ تسأل الفأرة .

ـ : «الأملُ عدآءٌ أبديٌّ ، ربما لحقنا به ذات يومٍ ما لم تَهِن أقدامُنا ونسقطْ في الطريقِ ، عاضين الترابَ بأسنانِنا .»

أَيتها الفأرةُ ، أيتها الفأرةُ ، موجودون نحن هنا تحت السلّمِ ، نتبادلُ الإشاعاتِ عن الزبدةِ الفائضةِ وارتفاعِ سعرِ الفائدةِ في البورصة والهبوطِ فوق القمرِ وزيارةِ النجومِ ، اذا ما وفقنا الله .

والمستقبلُ ؟ توصوصُ الفأرة .

ـ «انه طاقمُ مقاعدَ يُسدَّدُ ثمنُه بالتقسيط» . ويبقى لنا بعد ذلك أن ننتظرَ فاتورتَنا في آخرِ كل شهرٍ وندفعَ حتى النهايةِ صاغرين .



نزهة في حديقة

لا حظَّ للشجرةِ في أن تورقَ الآن ، هذا ما يهجسه البلبلُ ، مغنياً فوق غصنِه ، فنسيرُ على الأوراقِ المطقطقةِ تحت أرجلِنا او نجلسُ على المصاطبِ ، متحدثين عن أنفسنا عندما كنا جنوداً منسيين في الجبهة ، عارضين صورَنا التذكارية على أحفادِنا ، ينظرون الينا شزراً ، لاهين ، ثم يفلتون من أيدينا ، مطاردين الفراشاتِ ، متعثرين بالجثثِ التي كنا قد زرعناها وراءنا في الحدائق عندما بدأ العدو هجومَه المدفعي الكبير . تحت هذه الشمسِ المشرقةِ أضطجعُ على العشبِ عارياً ، مشغولاً بامرأةٍ تفركُ نهديها بالليمون وتغني . لا ، ليس هنا . إنهم يختلسون النظرَ اليك . سوف يجلسُ هذا الذي يتحدثُ الى كلبه مثل موظفٍ في الخدمة على ضفةِ البحيرةِ ويدخنُ سيجارتَه مسترخيا ثم ينهض ، راجعاً الى شقتِه ليتناولَ غداءَه في الواحدة تماما . ذلك ليس سراً . كل ما في الأمرِ هو أننا سنمكثُ أطولَ قليلاً هنا ثم نتركُ أماكنَنا

مثلما جئنا ، ممسكين بأيدي أَحفادِنا ، مودعين الأَشجارَ التي سنعودُ اليها في اليومِ التالي .



قصيدة لو

أيها الله

لو خلقتَ الإنسانَ بيدٍ واحدةٍ

وثلاثِ أرجل

ماذا كانت ستقولُ القردة ؟

لو ألصقتَ ذيولاً طويلةً بمؤخراتِنا

كيف كنا سنرقصُ في الحفلات ؟

لو أعطيتَنا أجنحةً نطيرُ بها

ماذا كنا سنفعلُ بجوازاتِ سفرِنا ؟

لو خلقتَنا غير مرئيين

ضد من كان سيكتبُ الجواسيسُ تقاريرَهم ؟

لو أعطيتنا تسعَ أصابع

كيف كنا سنعدُ إلى العشرة ؟

لو صنعتَ أجسادَنا من فولاذٍ

كيف كنا سنخوضُ الحرب ؟

لو جعلتَ أنوفَنا مناقيرَ

كيف كنا سنقبلُ الفتيات ؟

لو نصبتَ نفسَك حاكماً علينا

ماذا كنا سنفعلُ بأولياءِ أمورِنا ؟

لو أعطيتَك هذه القصيدة

ماذا كنتَ ستضيف إليها ؟

لو

لو

لو

أيها الله .

الأرملة في شرفتها

جارتي الأرملةُ في العمارةِ المقابلة

مرتديةً ثيابَ الحداد

تتكيءُ على إفريز شرفتها

وتدخنُ مثلي منتظرةً وقلقة

السيجارةَ بعد الأخرى

مطلقةً قبلاتِها في الهواء

لزوجِها الميت

هابطاً من الحافلةِ التي وصلت لتوها .

قبلاتُها الحارة

فوق فمي .



قصيدة عن النهايات

لم يَعُدْ لنا ما نفعلُه ،

كلُّ شيءٍ انتهى بسلام .

القمرُ انطفأَ فكفَّ العشاقُ عن اطلاقِ آهاتِهم .

الحروبُ انتهت فحملنا الجثثَ الى المقبرة .

الأيدي التي لوثتها الدماءُ غسلناها في النهر .

الساعةُ التي عطبت أَعَدناها الى صاحبِ الزمان

والغيومُ التي أَرعدت جرفتها الرياح .

واقفين في المحطةِ الباردة

مر باصُنا الأخيرُ مسرعاً في الظلام

فلم يعد لنا سوى أن نعودَ أَدراجنا مشياً على الأقدام
الى بيوتِنا البعيدة .

ماذا ننتظرُ هنا ؟



في كفي أحمل جمرة الأجداد




مكتبة
الفكر
الجديد

إبراهيم في حديقة النار

حرّاسُ المعبدِ سكروا والكهنةُ ناموا . رئيسُ الآلهةِ قرفصَ على الدكة ، منتظراً وصولي ، لأسلمه المعولَ الذي سيهدم به كل آلهة صغيرة . لم يعد ثمة نفعٌ في أحد . فلتسقطِ الآلهة . كان يمكن للأمرِ أن يمرَّ بسلامٍ ، لولا هينون ، عينُ الشيطانِ الذي اعترف علي أمام نمروذ صباحاً ، فأشارَ بحرقي في النار .

من وراء قضبانِ سجني في القلعةِ المنيعة رأيتُهم يجمعون الحطبَ ، اليوم بعد الآخر ، للنارِ التي سيكون وقودَها جسدي الناحل . ثم جاء نمروذ وشدني مقيداً مغلولاً الى منجنيقٍ قذفني به وسط النارِ الملتهبة . لم أبه كثيرا بالأمر ، فقد كنتُ أعرفُ أن الله سيهبُّ الى نجدتي في آخرِ لحظة ، كما يفعلُ دائماً ، حتى انني رفضتُ عرضَ مَلَكِ المياهِ بأن يفتحَ لي صنبورَ غيومِه ، مطفئاً

بأمطاره ناري المتقدة . وعاد خازنُ الريحِ كسيفاً مخذولاً ، يجرُّ وراءه عواصفَه وزوابعَه . هناك وقبل أن تطأ قدماي الجحيم ، سابحاً في الفضاءِ ، سمعت النداءَ الآمرَ ، آتياً من آخرِ الكونِ : يا نارُ كوني برداً وسلاماً على ابراهيمَ! فتنفستُ الصعداءَ واثقاً من نجاتي . النارُ الصاعدةُ حتى عنان السماء صارت عينَ ماءٍ في روضةٍ من وردٍ أحمرَ ونرجس ، رحتُ أتنزهُ في جنباتِها سبعةَ أيامٍ بلياليها ، تُظللني أشجارُها الوارفة ، وفي صحبتي مَلَكُ الظلِ ، شبيهي الذي جاءَ مسرعاً ليسليني في وحدتي ، راوياً لي أجملَ حكاياتِ حياتي .

آهٍ ، ماضرَّني لو مكثتُ ألفَ سنةٍ هنا في هذهِ الحديقة!

ما ضرَّني لو جمعوا كلَّ حطبِ العالمِ لحرقي!

من صحراء الى صحراء

الى امرىء القيس

١ - لا تبكِ يا امرأ القيسِ

لا تقفْ أيها الشاعرُ باكياً

من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

ولا تهلكْ أسى

فالذين رحلوا سوف يعودون ثانيةً

على مطيّهم الى الرسومِ الدوارسِ

ولسوف تسمعُ ضَحِكَ الفتياتِ في الهوادجِ عند الغروب

يسترقن النظرَ اليك من وراء الحُجُبات

وانتَ واقفٌ مثل كاهنٍ مجنون

كَفَرَ باللاتِ والعُزّ اذ فاضت دموعُ عينيه صبابةً

بسِقْطِ اللوى بين الدَخولِ فحوملِ



لا تبكِ يا امرأ القيسِ وتجمَّلِ

وقلْ لصاحبيكَ الباكيين معك

أن ينصرفا الى حالِ سبيلِهما

وثقْ أنه ما من خسارةٍ في النهاية

ما دمتَ قادراً على الذكرى

في زمنِ النسيان .

٢ ـ ليلة الذئب

ألا ربَّ يومٍ لك منهنَّ صـــالحٍ

ولا ســيّمــا يومٍ بدارةِ جُلْجُلِ

إذِ الريحُ هبَّت فاختبأتَ بخدرِها

وقلتَ لهـا : يا بنتُ لا تتـدللي

تعالَي وأرخي فوق صدري ضفائراً

تنامُ فأنسى أن حبَّك مقتلي

فقالت : يمينَ اللهِ ما ليَ حيلةٌ

فإنكَ مهما تأمُرِ القلبَ يفعلِ

عويلُ دماني قد أقضَّ مضاجعي

فقمْ واطفىءِ الحميَ بجيشُ بمرِجلي



فـأمـضـيـتَ كلَّ الليلِ في نارِ ليلِها
ومتَّ مـراراً قـبلمـا الليلُ يَنجلي

فـيـا لك َمن ذنـبٍ يتـيـمٍ مـراوغٍ
يجوسُ الصـحـارى في بجـادٍ مـزمَّل

ويغـوي العـذارى فـاضحـاً كل ليلةٍ
مليـكةَ حي أو أسـيـرةَ منزل َ

٣ـ العدو ينتظرك بين الأحراش

قامِرْ بكلِّ ما في جيوبكَ من نقود
إِرم النردَ فوق الرقعة
والعبْ دستَك كاملاً
سواءً ربحتَ أم خسرتَ .
ارفع يدَكَ عالياً بقارورةِ النبيذِ
كمن يقدمُ طقساً مقدساً
وادلقها في جوفِكَ سبعَ مراتٍ
ثم انهضْ وتلمّسْ سيفَك اليماني
في جرابِه
ملقياً خطبتَكَ الأَخيرةَ أمام قِيانِ الحانة

ونُداماك السكارى في آخرِ الليل :

اليوم خمرٌ وغدا أمرٌ .

أي ثأرٍ تطلبُ أيها الشاعر ؟

أي مليكٍ تقصد

في متاهةٍ عميانها يتبعونَكَ من صحراءَ إلى أخرى

وأنتَ تقتفي آثارَ ذئابٍ

سوف تقودُكَ بالتأكيدِ إلى غديرٍ ناضب ؟

آهٍ حذارِ أن تأمنَ الزمنَ الغادر

فالعدو يترصّدُكَ منذ الأَبدِ بين الأَحراش

ليفتكَ بك في كل مرةٍ تصل فيها تلك القرية .

بنو أَسدٍ أكلوا ربهم

وأنتَ مأكولٌ أيضا لا محالة .

٤ ـ أمام الصنم الكاذب

على مسيرةِ سبعِ ليالٍ من مكة

في تُبالة

ركعتَ امام ذي الخُلَصة ،

ذاك الذي كان يعرفُ كل شيء .

هل كان يعرف كل شيءٍ حقاً

ام أَنك وثقتَ بالآلهة

لتكفرَ بها في النهاية ؟

لا أحدَ سوف يدلك على الطريق

في هذه الليلةِ الظلماء

فاحملْ فانوسَك في يدِك

واخرجْ الى البرية

منتظراً عرافاً يخرجُ من أُسطورة

او ملاكاً مطروداً يهبطُ من الجنة

ليقول لك : ما من أكيدٍ في حياتك

خطوطُ كفك لا تلتقي

ونجمتُك في مجرةٍ أُخرى .

أَطلقِ النارَ على صنمِك الكاذب

أَكسـرِ القداحَ وارمِها في وجهه .

الطريقُ الى البيزنطينية بعيدٌ

وانتَ بلا خارطةٍ او بوصلة .

٥ ـ نزهة في مدينة جاهلية

أصاحِ دعِ الصعلوكَ يبكِ زمانه

فما همَّكَ الديجورُ ناءَ بكلكلِ

هنا سوف نبني في الرياحِ خيامَنا

ونضرمُ نيراناً بتلة حوملِ

فدعْ يا امرأَ القيسِ الزمانَ وشأنَه

وهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَولِ

تعال معي يا امرأَ القيسِ ودعنا نكتشفْ ما تخبئه لنا الحياة . ففي هذه المدينةِ الجاهليةِ كل شئ على مايرام : حاناتٌ تمتدُ على طول شارعِ الكاهناتِ وبغايا مقدساتٌ يرفعن الأعلامَ فوق سطوحِ منازلِهن .لقد أَفرطنا في الشربِ ونسينا ما كان ينبغي علينا أن نفعلَه منذ البداية . خذْ سيفَك اليماني ، ذا القبضةِ الذهبيةِ وارهنْه عند موثقِ العهودِ اليهودي واشترِ بدلةً عصريةً تليقُ بك . بعد ذلك سوف آخذك الى الحلاقِ ليقص لك شعرَ رأسك ويحلقَ لحيتَك الكثةَ بالصابونِ ويهذبَ شواربَك المضحكة . فبقليلٍ من العطرِ وربطةٍ حمراءَ وحذاءٍ ايطالي من جلدِ الماعزِ سوف تبدو واحداً مثل الجميعِ وتضيعُ في الشارعِ بين الناس .



٦ ـ الحلة المسمومة

بعد كل هذه القرونِ أَراكَ في أَحلامي

على حصانِك الذي تقطعُ به القفار

طالباً الجوارَ من أفعى تكشرُ عن نابِها

هارباً من خلعاءِ فُتّاكِ

سيماؤهم في وجوههم

اذ لا معاقلُ تحميك

ولا حصون .

أَراكَ كنقطةٍ في ذاكرةِ الله

تمشطُ شعرَ الريحِ

بيدِ السراب

في أطلالِ معبدٍ ضربه الزلزال

فتخلى عنك الحظ

وأَنكركَ حتى الشيطان .

بعد كل هذه القرون

ثمة أَحدٌ يأتي ويأخذني إليك كل ليلة

فندخلُ سويةً على قيصرِ الروم



جالساً على عرشِه الأَبنوس

تنحني أَمامه فيضعُ يدَه على رأسِك

ويقبلك في جبينِك

خالعاً عليك حلته الذهبية

فترتديها قاصداً الحفلة

غيرَ عارفٍ بالسم الذي يسري في عروقِك .

سوف تموتُ يا امرأ القيسِ

المرةَ بعد المرة

نفساً نفساً

وما من طبيبٍ يعرفُ دواءً لدائِك .

٧ـ الزائر الليلي

في الليلِ اذ تأتي اليَّ جالباً في خُرْجِ آبانك

غييمةً بيضاء

تدلقُها أمام بابِ شقتي

وتدخلُ الصالة

مختبئاً عن أَعينِ الأَعداء

أَنهضُ مسروراً أقولُ : مرحبا

أَيا امرأَ القيسِ ، أَيا صديقيَ القديم

إجلسْ وحدثني عن الأَيام في قطارِها الغادر!

ماذاجرى ؟ ماذا رأيتَ أيها الشاعر ؟

معاتباً تقولُ لي : أهكذا تستقبلُ الرفاقَ يا فاضل ؟

مرتبكاً أغيبُ عنك لحظةً

ثم أعودُ حاملاً إليكَ كلَّ ما معي من خمرةٍ

في بيتي المسكونِ بالأَشباح

نجرعُها في حفلةِ الأمواتِ والأحياء

نضحكُ من أنفسنا

في الليلِ إذ نعبرُ كهفَ الموتِ في مملكةِ الظلال

يتبعُنا الفرسان

مثل لصوصٍ يوقدون النارَ في طريقِهم ،

آثارُهم تسفُّها الرمال

يحدقون خلسةً فينا ويضحكون .

لكنني إذ ألمحُ الدموعَ في عينيك

تضيءُ مثل أنجمٍ مرميةٍ في الماء

أمسحها مواسياً ، أقولُ : لا بأسَ عليك أيها المجنون

كل الغيومِ تنجلي في هذه الصحراء!

تنظرُ فيَّ صامتاً ولا تقولُ أي شيءٍ ،

منصتاً للجرسِ الواهي الذي يدقُّ في ماضيك

ثم تقومُ مسرعاً من دونما وداع

وتتركُ الصالة

منحدراً في ليلِك الأَعمى الى الشارع

وخلفك الأَعراب

يعوونَ في الظلام .

خولة المالكية وعبدها العاشق طرفة

١ ـ الغزالة النافرة

لخولةَ ، تلك الصبيةِ المالكيةِ ، بعينيها المكحولتين

كغزالةٍ نافرةٍ في البرية

أسرارٌ كتمتها في صندوقِ قلبِها المتيمِ الذي رمته في اليم

معلقةً مفتاحَ بابِه المغلقةِ في عنقِها الطويل .

تاركةً عبدَها العاشق

يطوفُ حول بَرَقَة في الوادي

ويلثمُ ترابَ قدميها المقدسَ بفمه

بعد أن بدَّدَ آخرَ ما أبقته له من عقلٍ

في نظمِ القصائدِ وشتمِ صروفِ الدهر

اذ راح يرى الجمالَ مراكبَ ساريةً في محيطِ الظلمات

والحداةَ قراصنةً شريرين

يبزغون فجأةً بأعلامِهم السودِ من سُدَفِ الأزمنة

بين أَسنانِهم الخناجر

ناهبين كنوزَ الملكِ سليمان المطمورةَ في الأَطلال

تحت صليلِ السيوف

ودوي المدافع .

لقد انتهت قصتُك أيها الشاعر :

ملاّحُكَ فقدَ خرائطَه في العاصفة

وغزالتُك خذلت أَولادَها

لاجنةَ الى خميلةِ الأقحوان

والنسرُ الأبيضُ نشرَ جناحيه في السماء

ملاحقاً القافلةَ التائهة

منتظراً فرصتَه لينقضَ على الفريسةِ الجريحة .

لم يعد لك ما تفعله هنا يا طرفة بن العبد

(حتى الوحوشُ كَنَسَت في مخابئها)

فاذهبْ وقفْ على قنطرةِ الرومي

وارمِ بنفسِك في النهر

الذي ربما جرفتك أَمواجُه الصاخبة

في لعبةِ الأَقدار

الى أميرةِ قلبِك المجنون

فتفوزَ بنظرةٍ أخيرةٍ منها

وتموتَ شهيدا .

٢ ـ في شارع الأيام

لخـــولةَ جنّيٌ يجـــر بعـــيـــرَها

يجـورُ بهـا عـبـر القـفـارِ ويهـتـدي

خـبـيـرٌ بسـر الكونِ والكونُ دربُه

يرفُّ بـعـيـداً او يـروحُ ويغـتـدي

وفي الليلِ إذ تعـوي الذئـابُ وراءنا

يضيءُ بفـانوسِـه بَرقـةَ ثهـمـدِ

فنعـــبـــرُ ودياناً تفـــزُّ نســورُها

ونشـهـدُ أَعـراباً على ظهـرِ برجـدِ

وقـوفـا بـهـا صـحـبي علي مطيـهم

ويا أيهـــا الجني لا تتـــمـــردِ



وقـوفـا هنا الفـردوس يفـتح بـابه

مـلاك أسيـر في حـديقـة مـعبـدِ

يُشـــيـــرُ الينا هاتـفـــاً : كـلَّ ليلةٍ

يمـرُّ السكارى في الطريقِ المـعبـدِ

فـسـرْ أيهـا المجنونُ ، حظك وافـرٌ

على شـــارعِ الأيامِ لا تـتــــرددِ

فـــفي كل أرضٍ خـــولةٌ مـــالكيـــةٌ

وفي كل وادٍ ملتـــقى دون مـــوعـــدِ

وقـوفـاً هي الصـحـراءُ حـانةُ عـاشقٍ

فـدعنا نمت تحت الخبـاءِ المـعمَّـدِ

٣ ـ لم يبق أحد غيرك في الحانة

في كل ليلةٍ أرى

جاريةً ترقصُ فوق مسرحٍ

في قريةٍ محتلةٍ ،

جزيرةً ينتظرُ اللصوصُ في وديانِها

قافلةً تعودُ في الظلام

من وليمةِ الأَشباح

حافلةً تُقِلُّ قديسين في الفجرِ الى الجنة

ومرةً تقل طابورَ شياطينَ الى الجحيم

حديقةً يجرُّ فيها قنفذٌ أَفعى تعضُّ طائراً

مرفرفاً يقطرُ منه الدم

ويدخلُ المغارة .

في كل ليلةٍ أرى

موكبَ أسلافٍ يسيرون الى نبعٍ من الدموع

وغيمةً تُمطرُ ، أشجاراً تئنُّ إذ تمرُّ الريحُ في بستانِها

هاويةً بفأسِها على الغصونِ تارةً

وتارةً أُخرى على الجذوع

وفي السماءِ يكمنُ القمر

منتظراً عشاقَه ، يشكون في وحدتِهم

همومَهم اليه حتى يُقبلَ الصباح

كفارسٍ تدفعه الرياح

يسيرُ في المطر .

في هذه الحفلة



لم يبقَ في الحانة

سواك يا طرفة .

كل السكارى غادروا

فاشربْ وحيداً كأسَك المُرَّةَ حتى القطرةِ الأَخيرة

واخرجْ الى جلاّدِك الواقفِ خلف الباب

منتظراً إياكَ تحت سلمِ الأيام

ليغمدَ الخنجرَ في قلبِك .

في هذه الليلة

لم يبقَ غيرُ نادلٍ قد أثقلَ النعاسُ عينيه ،

فدعه يطفىءِ الأَضواء

ويقفلِ الحانة .

أَسْرِعْ الى الجلاّد .

إسمع يا نوح !

إِسمعْ يا نوح !

لقد شيّدنا دائما بأذرعِنا الهزيلة

سدوداً عاليةً جديدة

ضد الطوفاناتِ القادمة .

كلما غرقت سفينةٌ

بنى النجارون سفينةً أخرى .

ذكرياتُ المستقبلِ وحدَها

هي الأمل .

أنينُ الغرقى

يُسْمَعُ في كل العصور .

معجزتُنا هي أَننا سنظلُّ على قيدِ الحياة .

نواح المغني القديم

منفياً الى العالمِ السفلي

جالساً على العشبِ في حديقةِ الأيامِ الماضية

ينوحُ كما الشيطانُ نفسه

سارقاً آهاتِه الحرّى من قلوبِ العشاق

ليطلقها كأفاعٍ مخبولةٍ في سراديبِ روحِه المظلمة

داعياً سُكارى العالمِ كله الى وليمتِه :

أُمراءُ مكيون وسادنو أحلام

يقرفصون أمامه صامتين على الرمال

جارعين خمورَهم في نَخَبِ الحياة

فيما ضاربو الدفوفِ يحومون حول الضحية

ويرقصون

ناهبين نيرانَ زمانهم من أبعد الشموس .

كنت أراه هناك يغني دائماً كمن يحملُ قلبَه في كفه ،

صاعداً تارةً الى آخر برجٍ في السماء

هابطاً تارةً الى آخر كل الجراح

بينما الموتى ينهضون ويقبلون يديه ،

لحاهم منداةٌ بالدموع ،

والأحياءُ يخلعون عليه حللَ الديباج .

لكنك اليوم وحيدُ أيها المغني ومنسي

مزمارُك كسرته حدثانُ الزمان

وصوتُك الملائكي يغطيه الغبار .

عجوزٌ من زمانٍ آخر

يغني وحيداً في شارعِ الخسارات

وعلى وجهه قناعُ اللباد .

قيل كان يضربُ بالعود

وقيل مات بالجُذام .



أرميش المخالف*

كان ثمة ماردٌ يُدعى أَرميشُ المخالف

يفعلُ كل ما تطلبُه منه بالمعكوس .

فإذا قلتَ له : اصعدْ بي الى السماء

هبطَ بك إلى الأرض

وإذا رجوتَه : لا تقتلني

جرّدَ حسامَه من غمدِهِ وقطعَ رأسك .

مسكينٌ أَرميشُ المخالف

لقد اكتشفَ قبل الجميع

أن العالمَ يسيرُ بالمقلوب .

---

* أحد أبطال سيرة الملك سيف بن ذي يزن .



أنشودة اللامطر

الى بدر شاكر السياب ،
بعد عشرين عاما من الأمطار والثلوج
والصقيع في أوروبا

مطرْ

مطرْ

مطرْ

في كل يومٍ يسقطُ المطرْ

وتُعتِمُ السماءُ ، والغيومُ تطردُ القمرْ

تنطفيءُ النجومْ

وتذهبُ الشمسُ الى سقرْ

نهارُنا ليلٌ بلا انتهاءْ

وليلُنا تسوطُه الرياحْ .

جميعُنا في زمنِ الغيومْ

يقتلنا الضجرْ .



مطرْ

مطرْ

مطرْ

غاباتُنا معتمةٌ من دونما ضياءْ

حقولُنا أفسدَها المطرْ

فكلُّ ما كنا زرعناهُ هنا

زاداً لمن يأكلُ من ترابِنا المبلولِ بالدماءْ

قد جرفت حصادَه السيولْ .

مطرْ

مطرْ

مطرْ

وكلَّ عامٍ نقصدُ الجبالْ

ونرفعُ الأَكُفَّ بالدعاءْ

لتوقفَ السماءْ

دموعَها الثقالْ .

مطرْ

مطرْ

مطرْ

أَعترفُ الآنَ لكم أَني مللتُ قصّةَ المطرْ

فها هو الحنينْ

َيغمِرُني

للشمسِ والقمرْ

لزرقةِ السماءْ

تعبرها النجومْ

للنومِ في منتصفِ الليلِ على السطوحْ

للصيفِ في بغدادْ

لآبه اللهابِ ،

للحاناتِ في أواخرِ المساءْ

لضجّةِ المارةِ في الشوارعْ

لصائدي الأسماكِ في دجلةْ

لنزهة النساءِ في الحدائقْ .



مطرْ

مطرْ

مطرْ

فليذهبِ المطرْ

وكلُّ من يذرفُ في الطوفانْ

من أجلهِ الدمعَ الى الشيطانْ .

شمسٌ قمرْ

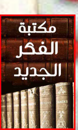
شمسٌ قمرْ

شمسٌ قمرْ

وفي العراقِ عيدْ .

الفهرست


مكتبة
الفكر
الجديد


مكتبة
الفكر
الجديد